

مسائل الهوية الوطنية في الصحافة الجزائرية خلال النصف الأول من القرن 20م
صحافة التيار الإصلاحى أنموذجا

Issues of national identity in Algerian press During the first half of
20th century
The reformist press is a model

قشاشنى على*

جامعة جيلالى اليايس سيدي بلعباس

kechachni@gmail.com

تاريخ القبول: 2022/06/25

تاريخ الاستلام: 2022/05/27

ملخص:

لم يكد القرن العشرين ليطل على الجزائر ببضع سنين حتى بدأت الأذهان تتفتح إلى ما يدور حولها من أحداث وتطورات خارجية، وراحت الطبقة المثقفة الجزائرية تبحث عن غذاء جديد في الفكر التحرري الوافد من بعض الأقطار العربية وحتى الأوروبية والذي يدعو إلى اليقظة والنضال والتأسيس للإعلام المستقل لأهميته الكبيرة في توعية الرأي العام والتعبير عن مختلف المطالب والحقوق، وبذلك ظهرت العديد من الصحف والمجلات التي اهتمت بمختلف الشؤون الوطنية ومن ضمنها قضايا الهوية، هذه الأخيرة التي أخذت أهمية كبيرة بالوسط الصحفي الجزائري نتيجة السياسة العدائية المكثفة لمقومات وثوابت الشعب الجزائري من قبل سلطات الاحتلال الفرنسي، ومن خلال هذا المقال سنحاول تسليط الضوء أكثر على الدور الفعلي للصحافة الوطنية في الساحة الفكرية والثقافية ومواقفها المختلفة من قضايا الهوية الوطنية خلال النصف الأول من القرن العشرين، مع التركيز على صحافة التيار الإصلاحى كونه أكثر التيارات اهتماما ودفاعا عن قضايا الهوية الوطنية خلال ذات الفترة.

الكلمات المفتاحية: الفكر التحرري: النخب: الصحافة الوطنية: الهوية الوطنية: التيار

الإصلاحى.

* - المؤلف المراسل.

Abstract :

Since the beginning of the 20th century, the minds of the Algerians have begun to open to the external events and developments that are going on around them. On the various demands and rights, and thus appeared many newspapers and magazines that were concerned with various national affairs, including identity issues, The latter, which took great importance in the Algerian journalistic community as a result of the intensely hostile policy of the components and constants of the Algerian people by the French occupation authorities, and through this article we will try to shed more light on the actual role of the national press in the intellectual and cultural arena and its various positions on national identity issues during the first half of The twentieth century, with a focus on the reformist press, as it was the most concerned and defending currents in national identity issues during the same period.

Keywords:

Liberal thought, elites, national press, national identity, reformist party.

1- مقدمة :

إلى جانب تجاذبات مختلف التيارات والنخب الجزائرية مع سلطات الاحتلال الفرنسي بخصوص قضايا الهوية الوطنية، كان للعديد من القطاعات الأخرى دورا بارزا في هذه المعركة الهويةية، ومن ضمنها الصحافة الوطنية التي كان لها الأثر الكبير والملموس في ذلك رغم تأخر ظهورها بالساحة النضالية الجزائرية حتى مطلع القرن 20، بعد أن أحكمت سلطات الاحتلال قبضتها على مختلف قنوات التواصل الخارجي نهاية القرن التاسع عشر، سيما بين الجزائر وبلاد المشرق التي ظهرت بها بوادر النهضة مبكرا وقطعت الصحافة فيها أشواطاً طويلة، وهو الأمر الذي أثر بالسلب على الواقع النضالي بالجزائر وأخر كثيرا ظهور صحافة وطنية مستقلة بها كان من شأنها أن تعالج مسائل الهوية الوطنية وتطرح قضاياها أمام الرأي العام الوطني منذ عقود سابقة.

ومن خلال هذا المقال سنحاول تسليط الضوء أكثر على الدور الفعلي للصحافة الوطنية في الساحة السياسية والفكرية ومواقفها المختلفة من قضايا الهوية الوطنية خلال النصف الأول من القرن العشرين، مع محاولة التركيز على صحافة التيار الإصلاحي كونه أكثر التيارات اهتماما ودفاعا عن قضايا الهوية الوطنية خلال ذات الفترة، وللإحاطة أكثر بجوانب الموضوع من الواجب أن نطرح بعض التساؤلات في هذا الشأن، يمكن صياغتها على النحو التالي:

كيف كان الواقع الصحفي بالجزائر أواخر القرن التاسع عشر؟ وما الظروف التي ساهمت في تبلور وظهور صحافة وطنية مستقلة مطلع القرن العشرين؟ فيما تجلت السياسة العدائية الفرنسية للهوية الوطنية خلال هذه الفترة، وما موقف الصحافة الجزائرية عامة من ذلك؟ وإلى أي مدى نجحت صحافة التيار الإصلاحي في الدفاع والذود عن المقومات والثوابت الوطنية؟ هذه التساؤلات وغيرها سنحاول الإجابة عنها، عبر اعتماد جملة من المناهج العلمية المتعارف عليها لدى الباحثين في حقل التاريخ، ومن ضمنها المنهج الوصفي السردي الذي سنوظفه في عرض مختلف التطورات التي شهدتها الواقع الصحفي بالجزائر نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، إلى جانب الوقوف على مختلف التأثيرات الخارجية خاصة المشرقية منها والتي ساهمت بشكل كبير في تبلور الوعي التحرري من جهة وفي ظهور الصحافة الوطنية بالجزائر من جهة أخرى، وإلى جانب ذلك سنحاول توظيف المنهج الاستقرائي من خلال الوقوف بالتحليل والتفسير للقضايا الهويةية المطروحة في الصحافة الوطنية عموما وصحافة التيار الإصلاحي خصوصا، ومواقف كل منها من سياسية الإدارة الفرنسية المعادية لثوابت الشعب الجزائري ومقوماته الحضارية المختلفة.

1- الواقع الصحفى بالجزائر أواخر القرن التاسع عشر:

لم تبرز قضايا الهوية كمسألة مركزية بالجزائر في الخطاب السياسى والأيدىولوجى فحسب، بل تعدته إلى الخطاب الإعلامى الذى تأثر بدوره بالصراع الحاصل على المستويين الأيدىولوجى والسياسى، حيث حمل الإعلام شحنة ذلك الصراع حول الهوية وخلفية المتصارعين حولها، لينقل بذلك تفاصيل معركة حقيقية سواء بين النخب المثقفة وسلطات الاحتلال، أو بين النخب ذاتها التى شكلها التيار المؤيد للعروبة والإسلام والرافض للتشبه بالغرب، والتيار الداعى إلى الانفتاح والحدائى والمعارض لكل شفوئية غارقة فى البعد الحضارى حسيهم⁽¹⁾.

هذا الإعلام الذى مثلته الصحافة بدرجة أولى كما كان الحال بالنسبة لصحافة المستوطنين، التى لفتت أنظار المسلمين الجزائريين لما رأوه فى حركتها الواسعة التى غطت القطر كله شرقاً وغرباً، وأثار تعجبهم تلك اللهجة الحارة التى تستعملها فى مخاطبة السلطة الحاكمة مطالبة أو مدافعة، فعلمهم ذلك أن يستفيدوا من هذه التجربة ودفع بهم الأمر إلى استعمال هذه الوسيلة الجديدة فى المطالبة بحقوقهم، والواقع لئن كان ذلك بالنسبة للنخبة المثقفة بالفرنسية التى انخرطت فى الحركة الصحفية منذ بداية القرن العشرين فإن المثقفين باللغة العربية ما لبثوا هم الآخرون أن دخلوا هذا الميدان الواسع مستفيدين من الصحافة العربية التى كانت تفد عليهم من المشرق العربى⁽²⁾ بعد أن تفتحت أعينهم على الحركات الإصلاحية التى انبعث نورها من الأفق الشرقى، وكانت صلة رواد الحركة الإصلاحية بالجزائر أمثال محمد بن مصطفى الخوجة وعبد الحليم بن سماية وعبد القادر المجاوى، بمجلة المنار جد وثيقة، وقد عبروا للشىخ محمد عبده نفسه عن هذا الإحساس العميق الذى يكنونه لهذه المجلة، ورجوه أن يوصى صاحب المنار الشىخ رشيد رضا بأن لا يذكر دولة فرنسا بما يسوءها لئلا تمنع المنار عن الجزائر وقالوا له "إننا نعدده مدد الحياة لنا، فإذا انقطع انقطع الحياة عنا"⁽³⁾.

والواقع أنه لم يظهر من الصحف الجزائرية آخر القرن 19 عدا اثنين تقريباً، الأولى هي جريدة الحق الأسبوعية⁽⁴⁾ التى ظهرت فى عنابة سنة 1893 على يد سليمان بن بنقى وعمر السمار و خليل قايد العيون، والتى كانت تصدر بالفرنسية ومزدوجة أحياناً، وكان هدفها الدفاع عن مصالح العرب الجزائريين ومصالح الفرنسيين الذين استجابوا للمشاعر الوطنية دون غيرهم، وبرنامج الجريدة لا يرفض الحكم الفرنسى لأنه يسمح بالحرية الدينية، ويبدو أن الذين أصدروها قد أحسوا بالغبن السياسى من معاملة الصحافة الفرنسية التى كانت ترفض نشر

مقالات الجزائريين حتى في ركن الرأي الحر، وقد أحس منشئوها أن الصحفيين الجزائريين قليلون وأن الذين يستطيعون التعبير البليغ أقل من ذلك فكان عليها أن تهاجم من يهاجم العرب وأن تدافع عن مصالحهم، وكان كتابها يتخذون أسماء مستعارة والمتأمل في لغتها وتعايرها يجدها تعبر عن رد فعل عنيف جعل بعض الكتاب المعاصرين يقولون إنها جريدة "عربية وطنية" لم تستطع الإدارة الفرنسية السكوت عليها⁽⁵⁾.

فقد جاء في افتتاحية العدد الأول من جريدة الحق، الذي صدر بتاريخ 30 جويلية 1893، منشورا تحت عنوان "برنامجنا" تضمن أن الهدف من إصدار هذه الجريدة هو الدفاع عن مصالح العرب الجزائريين، وتم الإشارة فيه إلى أن الصحفيين من أهل الجزائر قليلي العدد، وصحف المستعمرة ترفض دائما نشر مقالاتهم في ركن الرأي الحر، وأن محرري هذه الجريدة سيقومون بدراسة كل المسائل ذات المصلحة العامة، دراسة عميقة وبأسلوب بسيط ومعتدل، وسيفحمون أولئك الذين يهاجمون العرب على غير وجه حق⁽⁶⁾ كما جاء في نفس العدد، مقالا تحت عنوان "العدل العدل" كتب صاحبه فيه:

"لقد قرر العرب في النهاية، الدفاع عن حقوقهم التي تداس كل يوم، وإسماع صوتهم المهمل، ولقد كان لنا مدافعين من بين الفرنسيين ولكنهم قليلون، ونادرا ما ينصت إليهم، واليوم فنحن أنفسنا الذين سنتكلم، صحيح صوتنا ينطلق ضعيفا خافتا من صدورنا ولكنه سيصبح مدويا في النهاية في الأوساط الحكومية" ويظهر من هذا المقتطف، حجم التضيق الذي فرض على الأهالي بما في ذلك حرية التعبير عن مشاغلهم وحقوقهم، ناهيك عن التعبير على الاعتداءات والمظالم التي تطالهم يوميا من قبل سلطات الاحتلال ومعاونتهم، وهو ما عبر عنه نفس الكاتب بقوله "... أين هي قطاعاتنا التي كانت لا تعد ولا تحصى؟ وأين هي أراضينا التي كانت تمتد وبدون حدود؟ إنها في بطون المرابين وأشخاص آخرين، الذين هم بعد أن امتصوا دماثنا يتهموننا بالعصيان وبالوحشية"⁽⁷⁾.

وراحت هذه الجريدة تكشف بأسلوب عنيف وواضح، دسائس اليهود المبيتة ضد الجزائريين، وطالما نددت بالمرابين وكشفت حيلهم وطرقهم الملتوية التي يتخذونها أشراكا لاصطياد ما يملكه الأهالي من أرض وعقار، ولا أدل على صدق لهجتها من سعي اليهود المتكرر لكبت أنفاسها، حيث جاء في عددها الواحد والعشرين ما يلي "والذين يريدون إبطال جريدتنا هم جرائد (الكشير) أي محبو اليهود حيث اكتشفنا دسائسهم السرية"⁽⁸⁾ ومن أقوال الجريدة أن الذي ارتد (المتجنس) لا يؤتمن لأنه خان، وتساءلت: هل يمكن الثقة فيمن خان وطنه؟ وهكذا هاجمت الجريدة المتجنسين⁽⁹⁾ ودافعت عن حقوق الجزائريين في وقت كانت فيه حرية

التعبير مقيدة، أي أثناء حكم جول كامبون، وقد استمرت الحق حوالي سنة، ولا ندري هل توقفت بنفسها أم أوقفها الإدارة الفرنسية⁽¹⁰⁾.

أما الجريدة الثانية التي صدرت أواخر القرن 19، فتمثلت في جريدة النصيحة⁽¹¹⁾ ولعل الإدارة كانت وراء إنشائها سنة 1899، وهي التي كانت وراء إنشاء جريدة المغرب بالعربية مطلع القرن العشرين، أي سنة 1903، وقد دامت هذه الأخيرة حوالي عشر سنوات، واستكثبت نخبة من المثقفين الجزائريين، ونفس الشيء بالنسبة لجريدة كوكب افريقية تحت رئاسة الشيخ محمود كحول، وفي سنة 1904 أصدر العربي فخار في وهران جريدة المصباح⁽¹²⁾، ثم أصدر عمر راسم سنة 1908 جريدة الجزائر التي لم تعمر طويلا وكانت لها الإدارة الفرنسية بالمرصاد، ونفس الشيء بالنسبة لجريدة الحق الوهراني الصادرة سنة 1911⁽¹³⁾ وتوالى بعد ذلك إنشاء العديد من الجرائد وكان أهمها في هذه المرحلة، جريدة الفاروق لعمر بن قنور التي أصدرها سنة 1913 واستمرت حوالي سنتين وهي تعتبر من الجرائد الناجحة لأن صاحبها تمرس على فن الصحافة ولأن روحه كانت متقدة، وكان مؤمنا بالقضية العربية الإسلامية بحماس أورثه غضب الإدارة الفرنسية⁽¹⁴⁾.

وإذا كان هذا هو شأن الصحافة الوطنية في الجزائر قبل الحرب العالمية الأولى، فما القول فيما بعدها؟ لاشك أن عشرات الجرائد ظهرت ابتداءً من سنة 1919 مثل الإقدام والنجاح وغيرهما، ولقد أفضى تأسيس تلك الصحافة الأسبوعية والدوريات الشهرية إلى اضطراب اختلاف في الآراء بين الوطنيين والمثقفين حيث بدأ الصراع الفكري يبدى عن نواجذه وكانت البداية الحقيقية لعهد المقاومة الفكرية والأدبية للاستعمار الفرنسي في الجزائر⁽¹⁵⁾، رغم أن سلطات الاحتلال كانت تعتبر هذه الصحافة - خاصة المكتوبة بالعربية - صحافة أجنبية طبقا للمادة 14 من قانون حرية الصحافة الصادر سنة 1881، وعلى هذا الأساس كانت السلطات الفرنسية تمنع النشاط الصحفي بالعربية، بمجرد قرار يوافق عليه من بعد وزير الداخلية، وأول مرة اتخذت الإدارة الاستعمارية هذا النوع من القرار كان سنة 1925 ضد جريدة المنتقد التي أصدرها الشيخ عبد الحميد ابن باديس وكان هذا المنع إنذارا للصحافة الأهلية ألا تتعدى خطا معيناً في مواقفها السياسية⁽¹⁶⁾.

ومما سبق يتضح أن عبارة الصحافة الوطنية، كانت تعني تلك الصحافة المعبرة عن الاتجاهات الوطنية سواء الحادة منها أو المعتدلة، وسواء كانت باللغة العربية أو بالفرنسية وبناء على هذا فإن الصحافة التي أصدرها تيارات الحركة الوطنية فيما بعد تعتبر في مجملها

وطنية، غير أننا في هذا السياق سنقتصر على الصحافة المكتوبة باللغة العربية والتي كانت لها مواقف واضحة من قضايا الهوية الوطنية خاصة بعد ثلاثينات القرن العشرين، وحتما سيكون التركيز على صحف التيار الإصلاحية، كونه أكثر التيارات دفاعا عن ثوابت ومقومات الشعب الجزائري من جهة، ومن جهة أخرى لتوفر هذه الصحف ولو بشكل رقمي، الأمر الذي يسمح لنا بالوقوف على مضامينها ومواقفها بشكل مباشر، مع محاولة التقيد ببعض النماذج فقط.

2- صحافة التيار الإصلاحية وقضايا الهوية الوطنية:

منذ سنة 1933 أصدرت جمعية العلماء صحفها الخاصة، وهي بالطبع صحف إصلاحية تعبر عن اتجاه الجمعية في التعليم العربي والنهضة الإسلامية ومحاربة البدع والطرقية المرتبطة بالإدارة الفرنسية، والصحف التي سنذكرها هنا كانت أسبوعية، وقد صدر بعضها في الجزائر مثل الشريعة والصراط والسنة والبصائر في عهدها الأول، ثم صدرت البصائر في قسنطينة خلال عهدها الثاني، وقد أوقفت الإدارة الفرنسية ثلاث صحف للجمعية وهي السنة والشريعة والصراط، قبل أن يتوقف اضطهاد الصحف الإصلاحية بعض الوقت، وهكذا عاشت البصائر بين سنتي 1935 و1939 دون توقف ولكنها توقفت تلقائيا سنة 1939 مثل الشهاب حتى لا تضطرها ظروف الحرب إلى نشر ما لا يتماشى مع مبادئ الجمعية⁽¹⁷⁾.

وقد حملت هذه الصحف لواء الدفاع عن قضايا الهوية الوطنية منذ أول تأسيس لها وهو ما عبرت عنه جريدة المنتقد في عدها الأول، الذي جاء في افتتاحيته ما نصه " بسم الله ثم باسم الحق والوطن ندخل عالم الصحافة العظيم، شاعرين بعظم المسؤولية التي نتحملها فيه مستهلين كل صعب في سبيل الغاية التي نحن إليها ساعون والمبدأ الذي نحن عليه عاملون ... فلأننا مسلمون نعمل على المحافظة على تقاليد ديننا التي تدعو إلى كل كمال إنساني ونحرص على الأخوة والسلام بين شعوب البشر وفي المحافظة على هذه التقاليد المحافظة على أهم مقومات قوميتنا وأعظم أسباب سعادتنا وهناؤنا لأننا نعلم أنه لا يقدر الناس أن يعيشوا بلا دين وأن الدين له مكانة عظيمة لا يستهان بها، وأن الحكومة التي تتجاهل دين الشعب تسيء سياسته، وتجلب عليه وعلمها الأضرار والأتعاب .."⁽¹⁸⁾

2-1- جريدتي السنة والصراط :

في إطار الدفاع عن الإسلام ونشر تعاليمه الصحيحة، أصدرت جمعية العلماء المسلمين جريدة السنة بتاريخ الثالث من أفريل سنة 1933، كأول جريدة لها في إطارها التأسيسي، وكان شعارها إتباع السنة النبوية والاهتداء بها، وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة التي كانت تغلوا

واجهتها (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) وكذلك الحديث النبوي (من رغب عن سنتي فليس مني) ⁽¹⁹⁾، بالإضافة إلى ذلك التقديم الذي كتبه الشيخ عبد الحميد والذي بين فيه خط الجريدة وهدفها قائلا " وأسميناها السنة النبوية المحمدية لتشر على الناس ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم في سيرته العظمى وهدية العظيم" ⁽²⁰⁾، وكانت بذلك منبرا لحفظ الدين ودفع البدع ومحدثات الأمور وركزت على ذلك كثيرا، وهو ما عبر عنه ذلك المقال المنشور في عددها الرابع والموسوم بـ انكار العلماء المتقدمين على المدعين المبتدعين، الذي أنكر فيه الشيخ عبد الحميد، تلك البدع الفاشية والضلالات الرائجة لدى بعض الفئات ⁽²¹⁾.

وقد فتحت السنة صدرها واسعا لأقلام الكتاب الناثرين والشعراء، يتبارون على صدر صفحاتها الأربع، ولعل أبرز هؤلاء الكتاب محمد السعيد الزاهري الذي كان يتميز أسلوبه بالسلاسة والعمق في آن واحد، وكتابات تنبئ عن اطلاع واسع عن وضعية الإسلام والمسلمين لا في الجزائر وحدها بل في العالم كله، غير أنه مع توجس سلطات الاحتلال خيفة من الاتجاه الإصلاحي، سرعان ما راحت تشن حملة مسعورة ضد رجال الجمعية مدفوعة من طرف جمعية علماء السنة وبناء على طلبهم، أصدر الكاتب العام لولاية الجزائر منشورا مؤرخا في 16-02-1933 يمنع فيه الوعظ والإرشاد لغير علماء السلطة ثم ما لبث أن صدر قرارا آخر من قبل وزير الداخلية يقضي بتعطيل جريدة السنة ⁽²²⁾.

وبعد تعطيل هذه الأخيرة تم تأسيس جريدة الشريعة في ذات السنة، التي افتتحت عددها الأول بمقال تجذب فيه تعطيل جريدة السنة وتنوه فيه لمختلف نشاطات الجمعية في إطار احترام القوانين الفرنسية ⁽²³⁾، وقد سارت هذه الجريدة على نهج الأولى واهتمت أكثر بقضايا الإسلام وشؤونهم، وتناولت بالنقد ما يحاك ضده، ولا أدل على هذا، ذلك المقال المعنون بـ"ألف وسبعمئة مسلم يرتدون عن دينهم الحنيف ويعتقون النصرانية الكاثوليكية"، أشار كاتبه الأستاذ الزاهري إلى ذلك الاحتفال الذي أقامه الآباء البيض بمناسبة اعتناق 700 جزائري للمسيحية بالعاصمة، ووجه نقدا لاذعا لهذا العمل وللهؤلاء المرتدين وكتب ناصحا شباب الجزائر بالتمسك بدينهم والذود عنه ⁽²⁴⁾.

وقد سارت الشريعة في نهجها المحارب لكل مظاهر الابتداع والشركيات، وغير ذلك من الأمور التي ألحقتها بعض الطوائف بالإسلام ومؤسساته في الجزائر، وحملت أعدادها العديد من المقالات التي تستنكر هذه الأفعال وتحذر منها، من ضمنها ذلك المقال الموسوم بـ "التخليط والتخليط آفة في الدين والاجتماع" الذي شن فيه صحابه هجوما على الذين حاربوا العلم

والعلماء بجميع أنواع الكيد وأفسدوا على الناس دين الله وكادوا أن يعطلوه فيهم، وكتب قائلاً "... ثبت لدي ثبوتاً لا يحتمل الشك أن ليس تحت سماء الجزائر أو العالم الإسلامي... من سعى سعيه وبذل جهده وانفق عرضه وماله في سبيل تكدير ذلك الصفو وقتل الحركة العلمية الدينية البحتة الخالصة الجزائرية إلا شردمة قليلة كادت أن تنحصر في أفراد معروفين يعدون على الأكارع وحملوا على هذه الأمة المحمدية سلاح التخليط وغشوها بأنواع التخليط حتى خرجوا من حضيرة الإسلام.."⁽²⁵⁾.

وبما أن هذه الجريدة لم تأسس إلا لتخلف سابقتها، بنفس المواد التي احتوت عليها ونفس الخطة التي انتهجتها جريدة السنة، فكان من الطبيعي أن تلقى نفس مصيرها، حيث لم تعمر إلا قليلاً حتى تم تعطيلها، وما إن صدر العدد السابع منها حتى صدر قراراً بوقفها في يوم 29-08-1933 وبذلك لم تستمر سوى واحد وأربعين يوماً⁽²⁶⁾، غير أن الجمعية بادرت مباشرة دون يأس إلى إصدار صحيفة أخرى أسمتها هذه المرة الصراط، ولم تكن إلا امتداداً لسابقتها في كل شيء، ولعل الشيء الوحيد اللافت للنظر في هذه الصحيفة هو حملها للآية الكريمة التالية شعاراً (قل كل متريص، فتريصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى) غير أنها هي الأخرى لم تعمر طويلاً وصدر قراراً بتعطيلها من قبل وزارة الداخلية في تاريخ 23-12-1933 وهكذا توقفت بعد قرابة أربعة أشهر⁽²⁷⁾.

وقد نشرت الصراط 17 عدداً كانت تتمحور حول مقالاتها حول محاربة البدع والطرقية إلى جانب بعض القضايا الهوياتية، مثل تلك المتعلقة بالتعليم والحج وغيرها حيث جاء في العدد السادس منها مقالا تحت عنوان "مدارس الحكومة العلمانية والمدارس النصرانية" نوه فيه صاحبه إلى مشكلة انتساب أبناء المسلمين لهذه المدارس، وحذر الجزائريين منها⁽²⁸⁾، كما جاء في العديدين 12 و13 مقالات تحت عنوان "عناية الحكومة بتأمين راحة الحجاج" تحدث فيه صاحبه عن مختلف الشؤون المتعلقة بهذه الشعيرة، وأشار فيه إلى الواجبات التي لا بد أن يتقيد بها الحجاج، ومنوها لتلك الوعود التي قدمتها الحكومة لتنظيم رحلة الحج⁽²⁹⁾.

2-2- جريدة البصائر:

على الرغم من التضييقات التي كانت تتعرض لها صحف الجمعية من المراقبة إلى الحل والتعطيل، غير أنها استمرت في خطها المدافع عن مقومات الشعب الجزائري بكل ما أتيح لها من جهد، فبعد سلسلة التعطيل التي طالت كل من جريدة السنة والشريعة والصراط، تم إصدار جريدة البصائر التي تعد من أهم صحف الجمعية، ومن أكبر الصحف الجزائرية

والعربية شهرة وانتشارا وحتى أهمية، لما تركته من أثر عميق في مجرى الحياة الوطنية من جميع نواحيها، ولا بد هنا من الإشارة بأن إسم البصائر قد أطلق على هذه الصحيفة مرتين الأول على السلسلة التي صدرت بين سنتي 1935-1939، والثاني على السلسلة الصادرة بين سنتي 1947-1956⁽³⁰⁾.

وقد اهتمت البصائر بمختلف قضايا الهوية الوطنية وبذل محرروها الكثير من الجهود في ذلك، عبر مختلف المقالات التي تتمحور حول مختلف الشؤون والقضايا الإسلامية، وكان في طليعتها محاربة الجهل والبدع التي كانت منتشرة بالمجتمع الجزائري آنذاك، حيث كتب الشيخ محمد أبي الفضل مقالا تحت عنوان: "بعض البدع التي يجب على المسلمين إبطالها" جاء فيه: "...إن ما يفعله الناس الآن من الصباح أمام الجنائز بتشديد البردة، وقراءة القرآن ونحو ذلك غير جائز شرعا، وهو خلاف السنة وخلاف عمل السلف الصالح، لأن السنة في إتباع الجنائز الصمت والتفكير والاعتبار وعلى ذلك جرى العمل من السلف الصالح، وقد قال الإمام مالك رضي الله عنه " لم يأتي آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها"⁽³¹⁾، وقد سار جل أعضاء الجمعية على هذا نهج محاربة مظاهر الشرك والبدع، وكانت البصائر دوما المنبر المناسب للتعبير عن ذلك.

وفي ذات الإطار كتب الشيخ مبارك الميلي مقاله المعروف بـ "الشرك ومظاهره" قائلا "... والقول في الذبائح هو أن الذبيحة إما أن تذبح على وجه القربى، فتكون عبادة وإما على غير قصد التقرب فتكون عادة، والتقرب بالذبائح لغير الله من العادات التي عرفت عن المشركين في الجاهلية فكانوا يذبحون عند الأصنام والأنصاب، تقربا منها وطلبا لمرضاها قصد حصول مرضاة الله، فجاء الإسلام وتنكر عليهم ذلك الاعتقاد وحرم من الذبائح ما أهل به لغير الله...، ثم تغيرت العامة لعلمائها وخضعت لرؤساء جهال لا يتميزون عنها بأوضاع ورسوم، فتنكر علماءها للدين واتخذوا علمهم أداة تقرب من أولئك الرؤساء الجهال وبضاعة ارتزاق من أولئك العوام"⁽³²⁾، وللإشارة لما كتب الشيخ مقاله هذا كان مقيما في مدينة الأغواط التي عرفت كغيرها من مناطق الجزائر بهذه المظاهر.

كما تضمنت البصائر العديد من المقالات حول فريضة الحج، لعل من أهمها مقال الشيخ مصطفى اللبان الذي كتب فيه: "... الحج هو المؤتمر الإسلامي الأكبر، والتجمع العالمي الأشهر، ودار الندوة لمئات الألوف من المسلمين، كل عام يفد إليه المؤمنون من كل فج عميق، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد سأله أبو هريرة رضي الله عنه أي العمل أفضل

قال " الإيمان بالله، ورسوله قيل ثم ماذا ؟ قال " الجهاد في سبيل الله، قيل ثم ماذا ؟ قال حج مبرور" وقال: " من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه " ...وقال الله تعالى "الحج أشهر معلومات فمن فرض فبين الحج فلا رفث، ولا فسوق ولا جدال في الحج، وما تفعلوا من خير يعلمه الله، و تزدودوا فإن خير الزاد التقوى، واتقوني يأولي الألباب" (33).

وبخصوص اللغة العربية والتعليم العربي الحر، فقد خصصت البصائر لهما العديد من المقالات التي ساهم في كتابتها مجموعة من أعضاء الجمعية ومن ضمنهم الشيخ عبد الحميد الذي كتب مقالا نوه فيه إلى ضرورة التعليم والتحصيل المعرفي، ولو بالتعاون مع الحكومة الفرنسية لما في ذلك من منافع تهذيبية للفرد والمجتمع، حيث جاء فيه: "إننا نعمل لتعليم المسلمين وتهذيبهم، ورفع مستواهم الأدبي والخلقي وأننا نعلم أن الذي يريد أن يعلم الأمة ويهذبها لا يمكن أن يصل إلى غايته إلا بالتعاون مع الحكومة، بفسحها الطريق أمامه، وتمكينه من السير إلى الغاية التعليمية التهذيبية التي هي غاية لكل حكومة رشيدة، وكل هيئة تعمل لترقية المجتمع وسعادته" (34)، ويبدو أن إشارة الشيخ عبد الحميد إلى التعاون مع الحكومة الفرنسية هدفه الابتعاد عن ذلك الصدام معها، والذي من شأنه أن يدفع الإدارة إلى التضييق على التعليم العربي ومنع أعضاء الجمعية عن ممارسته، وحتما هذا الأسلوب في الكتابة اقتضته الظرفية التاريخية وله مبرراته الواقعية والمنطقية.

كما كتب الشاعر محمد العيد مقالا في ذات السياق عرج فيه على مسألة التربية والتنشئة ودورها في استقامة الإنسان من عدمه، جاء فيه " التربية تنشئة الملكات وتنمية الغرائز على خلق ما، وهي من أظهر مظاهر الإنسان، وأعظم مميزاته عن الحيوان...ولهذه التربية عوامل ومواطن وآثار، ضمن عواملها المنزل والمدرسة والمجتمع. ومن مواطنها الجسم والعقل، ومن آثارها ما يصدر عن المتربي من الأعمال العظيمة والأخلاق الكريمة وتقوى وتضعف آثار التربية في الإنسان بحسب قوة وضعف عواملها ومواطنها" (35).

غير أن تضييق سلطات الاحتلال على التربية والتعليم العربي، حال كثيرا دون تحقيق ذلك، ودفع جمعية العلماء المسلمين إلى الاحتجاج عبر البصائر في عديد المقالات منها المقال المعنون بـ " عرقلة تعليم الدين ولغة الدين " جاء فيه: "... باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ارفع احتجاجي الشديد ضد ما يلقيه تعليم الدين الإسلامي ولغته العربية من المقاومة والعرقلة وضد امتناع الإدارة من إعطاء الرخص للطلاب الكثرين، مما أدى إلى توقفهم عن التعليم وتشريد الصبيان المتعلمين...وفي الظروف التي اشتدت فيها مقاومة الإدارة للتعليم والمعلمين وصارت تقدمهم للمحاكمة كمجرمين، فابسم الجمعية أطلب بكل تأكيد من

الحكومة الفرنسية أن تطبق حرية التعليم ، ومنح الرخص للجزائريين مثل : فرنسا كما طبقت قانون المخالفة، إذ ذاك هو العدل المنتظر من حكومة أمة شعارها " الحرية العدالة، المساواة" (36)، كما كتب الشيخ البشير الإبراهيمي، مجموعة مقالات تحت عنوان التعليم العربي الحر والحكومة، انتقد فيها سياسة سلطات الاحتلال في اضطهاد اللغة العربية والمدافعين عنها حيث يقول في إحدى مقالاته بالبصائر" يرجع تاريخ هذه المشادات القائمة بيننا وبين الحكومة في قضية التعليم العربي إلى خمسة عشر سنة، فهي مقترنة بظهور جمعية العلماء تقريبا وقد تعاقب على الجزائر خلال هذه الفترة سبعة ولاة مختلفي الميول السياسية ومتنوعي الحزبية ولم يستطع واحد منهم أن يحل المشكلة بوجهه يرضي المسلمين، ولكنها تشتد وتتعمد في كل سنة، تبعا لنمو الحركة الإصلاحية واستفحالها وتطورها، فكلما اشتدت حركة التعليم وامتدت ظهر للحكومة قانونا أو إقرارا (37).

وقد أشار سجل جمعية العلماء إلى هذه القضية وبين حجم التضيق الذي كان يتعرض له التعليم العربي الحر نظير مع الجمعية ورجالها من ممارسة هذا التعليم، إذ جاء فيه " كان التعليم العربي الحر يدور في دائرة ضيقة من أمكنته وأساليبه وكتبه، فسعت الجمعية بما استطاعت من أسباب أن توسع دائرة الأمكنة بإحداث مكاتب حرة للتعليم المكتبي للصغار وبتنظيم دروس الوعظ والإرشاد الديني في المساجد، وبتنظيم محاضرات في التهذيب وشؤون الحياة العامة في النوادي- وصحبا توفيق الله تعالى فنجحت مساعها في هذا الباب نجاحا عظيما، وأثمرت أعمالها إثمارا نافعا، ولولا موانع من الأحكام الإدارية الجائرة في غلق بعض المكاتب، والتضييق في إعطاء الرخص، وإيصاد المساجد في وجوه الوعاظ لكانت النتيجة اليوم مما تغتبط به الجمعية العامة المخلصة، وتغتبط به الأمة المتعطشة المقبلة..." (38).

كما كتبت البصائر عن التجنيس والإدماج ومختلف المظاهر التي تدعو للفرنسة والتغريب، وتناول أعضائها هذه القضايا من الناحية الشرعية فحرموها لما فيها من مفسد على الفرد والمجتمع، بل ذهب البعض منهم إلى وصف المتجنسين بالمرتدين عن الإسلام وأنزلوهم منزلة الكفار، وفي هذا السياق كتب الشيخ العربي التبسي مقالا تحت عنوان " التجنس كفر وارتداد" جاء فيه: "...فهؤلاء المبتدعون للتجنيس على علم بتلك الحقيقة الاجتماعية الدينية ، من كثر سواد قوم فهو منهم ، فيكون التجنيس غزو للعقائد الإسلامية ومحاولة لتكفير المتجنس بطريقة يستهوي الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، وأنا أتحقق كما يتحقق كل عائق أن هذه المكفرات لا يفعلها من تربى في أحضان الإسلام وأشرب قلبه

حسب ما جاء في كتاب الله، وإنما يرتكبا من أنشاء نشأة بعيدة عن الإسلام وتعاليمه " ثم أضاف إلى ذلك قوله: " التجنس أي صيرورة المسلم من جنس غير المسلمين برخصة لأحكام الإسلام الإلهية، وإيثاره لأحكام وصيغة بشرية حتى انه يصير من يوم إمضائه للعقد القاضي بارتحاله من أسرة الإسلام إلى أسرة غيره لا حق له في الإسلام وتشريع⁽³⁹⁾ ولا في تحليله، وتحريمه ولا في آدابه وتاريخه ولا في أحسابه وأنسابه ، لأنه تركها مختارا راغبا في سواها كارها لها، وأين ذلك من قول الله عزوجل في كتابه المحكم "فلا ربك لا يؤمنون حتى يحكموك فهل ينطبق هذا الحكم على التجنس؟....." ⁽⁴⁰⁾.

والواقع أن البصائر اهتمت بمختلف القضايا الوطنية والهوياتية، وكتب محرروها في مختلف الشؤون المجتمعية والإسلامية، وحتى القضايا التي لها علاقة مباشرة مع سلطات الاحتلال الفرنسي وسياستها العدائية، ولو بكثير من التحفظ والليونة في الخطاب تفاديا للإجراءات الردعية والقمعية التي كانت الإدارة الفرنسية تسلطها ليس على البصائر وغيرها من الصحف فحسب، بل على الجمعية ونشاطها عامة كالمراقبة والاستجواب وحتى الاعتقال، كما أن المتتبع لمقالات البصائر وغيرها من جرائد الجمعية، يتضح له جليا ذلك الطابع الديني الغالب على المقال الصحفي، وهو الأمر الذي كان يتمشى مع هدف الجمعية الإصلاحية، ذلك أن فلسفة التغيير والخلاص عن الشيخ عبد الحميد وغيره من أعضاء الجمعية تبدأ من منظورهم داخليا، أي أن إصلاح الفرد والمجتمع الجزائري هو الطريق الأنسب لثبات وبقاء الشخصية الوطنية، وهو الطريق الأوحده لمواجهة مختلف التحديات التي تفرضها السياسة العدائية لسلطات الاحتلال.

4- خاتمة:

مما سبق ذكره يمكن القول أن سياسية فرنسا المعادية للهوية الوطنية وعلى رأسها اللغة العربية والإسلام شهدت الكثير من التجاذبات وردود الفعل من قبل الجزائريين خصوصا مطلع القرن العشرين، أين بدأت بوادر النهضة والوعي النضالي تتبلور في الأفق نظير العديد من الأفكار التحريرية القادمة من المشرق العربي وحتى أوروبا، وكانت الصحافة الوطنية التي بدأت في الظهور خلال ذات الفترة، الحاضنة الأكبر لهذه التجاذبات سواء تعلق الأمر بالصحافة ذات التوجه العربي الإسلامي أو تلك الناطقة بالفرنسية، حيث ساهم كل منها في الدفاع عن القضايا الهوية وفق وجهة نظره رغم بعض التباينات فيما بينها، ذلك أن الأولى وعلى رأسها الصحافة الإصلاحية كانت أكثر تعلقا بقضايا الهوية الوطنية، وكثيرا ما عارضت الأفكار الداعية إلى الإدماج والتجنيس والتغريب، على عكس بعض الصحف التي كانت لها بعض التحفظات في

ذلك، وعلى الخصوص تجاه قضية التجنيس التي كانت ترى فيها حقاً لا بد منه من أجل تحقيق تكافؤ الفرص مع الفرنسيين وعيش الجزائريين كمواطنين بكامل الصلاحيات، والواقع أنه مهما كانت الاختلافات وحتى التناقضات بين هذه الصحف إلا أن القضايا الوطنية كانت على رأس اهتماماتها عامة، وهو الأمر الذي لفت انتباه سلطات الاحتلال ودفعها إلى مراجعة سياستها المعادية للهوية الوطنية ولو قليلاً.

ومن جهة أخرى كان لظهور الصحافة الإصلاحية التي أسست لها جمعية العلماء المسلمين، الأثر البارز في حدوث الكثير من التحولات بالواقع الهوياتي في الجزائر، حيث تبنت مختلف صحفها مسألة الدفاع عن ثوابت الشعب الجزائري ومقوماته الحضارية، كما كان الحال بالنسبة لجريدتي السنة والصراط ثم الشريعة والشهاب وأخيراً جريدة البصائر التي ناضلت ورافعت طويلاً لصالح قضايا الهوية الوطنية، رغم المراقبة المشددة والتضييق بسبب اهتماماتها المكثفة والداعية إلى احترام الإسلام وضرورة فصل الدين عن الدولة وإلزامية إقرار اللغة العربية كلغة رسمية وكذلك إصلاح التعليم الأهلي ورفض كل مظاهر الإدماج والتجنيس وما إلى ذلك من مطالب جعلت السلطات والإدارة الفرنسية أمام معركة حقيقية لم تشهدها مثلاً منذ بداية الاحتلال، ودفعها إلى اتخاذ عديد من الإجراءات في سبيل مواجهة هذه التحديات.

الهوامش:

- (1)- تومي أم الخير، مسألة الهوية في الصحافة الجزائرية خلال فترة الاستعمار، جامعة وهران: مجلة الحضارة الإسلامية، 2011، مج: 12، ع: 15، ص: 279.
- (2)- محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية، الجزائر: عالم المعرفة، 2013، ص: 11.
- (3)- محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية 1847 إلى 1954، عالم المعرفة، 2013، ص: 56، 57.
- (4)- صدرت يوم 30 جويلية 1893 باللغة الفرنسية، كانت تظهر مرة كل الأسبوع بلغت عددها، الخامس عشر، توقفت عن الصدور بديسية من اليهود الجزائر مدة 8 أشهر، ثم صدر العدد السادس عشر منها محور باللغة العربية والفرنسية ذلك يوم 14 جانفي 1894 حاملاً هنا التعريف "جريدة فرانسوية سياسية أدبية في شؤون العرب الجزائريين، ينظر: محمد ناصر، المقالة الصحفية، المرجع السابق، ص: 53.
- (5)- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، 1998، ط01، ج: 05، ص: 243، 244.
- (6)- جريدة الحق، العدد 1، 30 جويلية 1893. نقلاً عن جمال قنان، نصوص سياسية جزائرية 1830 1914، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2009، ص: 258.

- (7) - جريدة الحق، العدد 1، 30 جويلية 1893.
- (8) - محمد ناصر، المقالة الصحفية، المرجع السابق، ص: 54.
- (9) - ينظر أيضا: جريدة الحق، العدد 8، 17 سبتمبر 1893، نقلا عن جمال قنان، نصوص سياسية، ص: 261.
- (10) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 05، ص: 244.
- (11) - اسمها حقيقي النصح، أنشأها مستعرب فرنسي يدعى إدوارد قوسلان، وجاءت تحمل شعار " احترام الدينين، احترام الجنسين" والمتصفح لهذه الجريدة تترأى له أكثر من علامة استفهامية حول هدف صاحبها والذي يبدو أنه كان إضافة إلى مشربها السياسي الاستعماري الواضح، غاية مادية، حيث أرادت أن تستغل الفراغ الذي يشتهي منه الجزائريون لحاجتهم إلى صحافة وطنية، محمد ناصر، المقالة الصحفية، ص: 55-57.
- (12) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 05، ص: 244، 245.
- (13) - صالح خرفي، مدخل إلى الأدب الجزائري الحديث، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983 ص: 64.
- (14) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 05، ص: 246.
- (15) - عبد المالك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر، 1830-1962، رصد لصور المقاومة في النثر الفني، الجزائر: دار هومة، 2009، ج: 01، ص: 338.
- (16) - زهير إحدادن، الصحافة المكتوبة في الجزائر، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2007، ص: 36.
- (17) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 05، ص: 244.
- (18) - جريدة المنتقد، العدد 01، 02 جويلية 1925.
- (19) - جريدة السنة، العدد 01، 03 أبريل 1933.
- (20) - نفس العدد.
- (21) - جريدة السنة، العدد 04، 01 ماي 1933.
- (22) - محمد ناصر، المقالة الصحفية، ص: 201.
- (23) - الشريعة، العدد الأول، 17 جويلية 1933.
- (24) - الشريعة، العدد الثاني، 24 جويلية 1933.
- (25) - الشريعة، العدد الخامس، 14 أوت 1933.
- (26) - محمد ناصر، المقالة الصحفية، ص: 227.
- (27) - نفسه، ص: 266.
- (28) - الصراط، العدد السادس، 23 أكتوبر 1933.
- (29) - الصراط، العدد 12، 04 ديسمبر 1933، العدد 13، 14 ديسمبر 1933.
- (30) - محمد ناصر، المقالة الصحفية، ص: 279.
- (31) - البصائر، العدد 16، 24 أبريل 1936.
- (32) - البصائر، العدد 22، 7 جوان 1936.

مسائل الهوية الوطنية في الصحافة الجزائرية خلال النصف الأول من القرن 20 م
صحافة التيار الاصلاحى أنموذجا

- (33) - البصائر، العدد 144، 16 ديسمبر 1939.
- (34) - البصائر، العدد 115، 27 ماي 1938 .
- (35) - البصائر، العدد 02، 10 جانفي 1936 .
- (36) - البصائر، العدد 115، 27 ماي 1938 .
- (37) - البصائر، 28 فيفري 1949.
- (38) - سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار المعرفة، 2009، ص: 49.
- (39) - البصائر، العدد 95، 14 جانفي 1938 .
- (40) - نفس العدد.